

لكى تكون إنسانا مهذبا

بقلم صريح

لا تتحشر نفسك فى وسط لست منه ، فان أهل هذا الوسط يتأفون من وجودك بينهم وإن كانوا لا يبدون لك هذا التأفف ، وعلى القوم وأصحاب الشخصيات الكبيرة قد هجروا القهاوى إلى الأندية فرارا من أمثالك الذين يتهزون فرصة وجود شخص يعرفونه فى مجلس ، فيقبلون عليه ويسلمون ويجلسون ويشتركون فى الحديث كما لو كانوا أصدقاء أو زملاء للآخرين .

هذا تطفل ممقوت ، وزج بالنفس فى غير مكانها ، وإرهاق للناس الذين يجتمعون — وهم من وسط واحد — ليتأزحوا ولتسامروا ولتحدثوا فى غير تكلف ولا تخرج . فإذا رميت بنفسك فى وسطهم أكرهتهم على التحفظ فى السمر والمزاح أو حملتهم على تغيير الحديث الذى كانوا يتحدثون فيه لكى لا تطلع على سرهم أو لكى لا تتقل عنهم ما لا يحبون أن يتقل ، وهكذا يظلون فى ضيق وحرج حتى ينكشف عنهم ظلك الثقيل .

ولا يكفى أن تدفع ثمن مشروبك أو ما كورك لتقول إنك لا تكلف الناس شيئا وتظن أنك بذلك تصبح خفيفا عليهم ، فليست المسألة مسألة قروش ، ولكنك تكسر عليهم استئناسهم ببعضهم وتضيق من حريتهم فى الكلام حتى يهيم الواحد منهم بأن يسألك : ” حضرتك طائر حاجة ؟ “ ولكن الحياء يمنعه .

كن لطيفا ، وإذا كان لديك ما تقوله لشخص تعرفه فى جمعية أصدقاء فاطلبه وجالسه بعزل عن الآخرين ولا تطل عليه الحديث وانصرف ، وإلا فأت الثقل يجلس ممقوتا ويشع ملعونا .

لا تتحدث فى المجلس عن غرامياتك ، فليس أدل على سوء الخلق وضعة النفس وانحطاط التربية من أن تفضح امرأة عرقها وأثمتك على شرفها ، وإن هذه الجريمة لترداد بشاعة وشناعة إذا كان لهذه المرأة زوج أو أخ أو ولد .

وبعد ، فما للناس ولحوادثك الغرامية وتواريخ غزواتك وأما كن فتوحاتك وأسماء رفيقاتك ؟ إنهم لا يهتمون من ذلك شيء ، وإنما يستمعون اليك وهم ينتابون ولا يريد أحدهم أن يجرحك بأن يقول لك : ” وأنا مالى “ .

وحديثك هذا ثقيل على نفوسهم ، لأنك تحاول أن تمنعهم فيه بأنك الرجل الجميل الظريف الذى تنهاوى عليه النساء ولا تقاوم حسنه الفتيات ، ولأنك تريدنهم على أن يصدقوك فى ” فشرياتك “ وكلهم يعتقد أنك مخلق أو مبالغ ، فإذا كنت صادقا فإنك عديم المروءة قليل الأدب ، وإذا كنت كاذبا فأنت تضيف إلى ذلك سماجة الفحة والزهو الذى لا يطاق .

واعلم أن الانجليز فى مجتمعاتهم لا يترددون فى أن يقدفوا بك على سلم النادى أو أفرز القهوة إذا سمعوا منك مثل هذا الكلام .



كن نظيفا ، وكن حسن الحنءام ، وكن أنيقا إذا شئت ، ولكن لا تكن مخنثا فى قيافتك فذلك عيب يفقدك مظهر الرجولة ، ولا أفهم لماذا تنفض إذا قال لك أحد الناس إنك امرأة ، مع أنك تحاول أن تشبه بالنساء .

ولا تحسب أنك تستوى قلوب الفتيات بالجاكثة اللاصقة على بدنك وبالشعر الملمع ، وبالأظافر الوردية البراقة ، وبالعطر الفائح منك ، وبالكفنة التى يضاهى لونها لون الجورب والمنديل وبالجواهر التى تزين رباط رقبتك وأصابعك ، فذلك كله إغواء فى التخنث لا يتبارى فيه غير النساء ، والمرأة تحب فى الرجل رجولته قبل كل شيء ، وهى تحتفك إذا أحست أنك تنافسها فى الزينة والتبرج وهما أخص خصائصها وأظهر صفاتها .

فإن كنت وسيما أو جميلا فاكف بمجالك ووسامتك وأبرزها بالظهور فى مظهر الرجل الكامل ، أما إن كنت دميما فليست الزينة هى التى تجلك ، وإلا فسا رأيك فى الجارية السوداء التى تصيغ وجهها بالبودرة وشفيتها بالأحمر ؟ إن الناس يستخرون منك كما تستخر أنت من هذه الجارية ويضحكون منك على حد سواء .



حافظ على كرامتك بين الناس ولكن لا تكثر من الكلام فى الكرامة ، فانه لا يكتر من الكلام فيها إلا الصعاليك . واحرص على أن تكون محترما من مجالسك ولكن لا تبالي فى ذلك ولا تجعل منه سببا للشاجرات . ولا تحاول أن تجد فى كل إشارة أو كلمة معنى مهينا أو غرضا جارحا ، بل افترض فيها حسن نية المتكلم واحملها على خير الوجوه وتسامح أو فعاب

بلطف ورفق ، وإلا فانك تكون صعب المعاشرة غير مأمون المجالسة ، يتجنبك الناس كما يتجنبون المواد المفرقة أو القابلة للالتهاب . ولعل سكوتا أو إطرافا أو اغضاء أو ابتسامة أفضل في ردع المجترئ عليك من مشاجرة أو ملاكمة .

واملك نفسك وأعتباك كثيرا حتى لا تفكر صفو المجلس الذي يضمك ، فإخوانك وأصدقاؤك قد جاءوا ليتحدثوا ولتسامروا لا ليشهدوا مصارعات ولا ليحضرُوا مضاربات ولا لينفضوا منازعات . وليس مفروضا على الجالس في النادي أو القهوة أن يقدروا ظروفك ويزنوا أعتارك ويحققوا في ما قلت وفي ما قيل لك ، وإنما هم سيحكون عليك وعلى صاحبك الذي تخاصمه حكما مرتجلا سريما وهو أنكما مجنونان أو متهوران لا يستحب المكان الذي تكونان فيه .



لا تكن "نظما" وتضع في محفظتك ورقة بعشرة جنيهات أو أكثر تخرجها في كل مناسبة تشعر الناس أنك غنى . فالناس — وهم لا يستفيدون من مالك ولا ينتفعون بغنائك — يستوى لديهم إن كنت ذا مال أو رقيق الحال .

وأنت تخرج هذه الورقة لكسارى الترام لا ليأخذ منها ثمن التذكرة ، لأن الكسارى ليس صرافا ولا صاحب بنك ، وإنما تخرجها لترأها السيدة الجالسة أمامك ، وتظن أنك بذلك تستهويها اليك مع أنها تضحك منك في سرها ، لأنها تعلم أن الغنى الذى تعود حمل هذه الأوراق لا يزهى بها ولا يحتال .

وأنت تخرجها لخادم القهوة بين جمع من أصحابك لا ليأخذ منها ثمن الفئجان الذى شربته ، بل ليرأها هو وليرأها أصحابك المجتمعون ، ظنا منك أن ذلك يزيد في احترامهم لك وإكبارهم أمرك ، مع أنهم يعلمون من حقيقتك ما تعلم وما لا تظن أنهم يعلمون .

وبعد فاته يعلم أن هذه الورقة واحدة لا أخت لها تعرضها طول اليوم على معارفك ليصرفوها لك ، فإذا صرفها أحدهم عدت بفقدتها ثم عدت الى عرضها وهكذا دواليك .



لا تنقل على الناس بذكري أثمان ملابسك الغالية . فأنت تلبس لنفسك لا للناس ، ولرفاهيتك لا لرفاهية الناس . والناس لا يهمهم أن كنت اشتريت قميصك من عند "بوفان" في باريس بثلاثة جنيهات أو من عند الأسطى محمد غنيم في حارة السقاين بعشرة قروش . واعلم أن في ميدان الفشر متسعا للجميع ، وأن الذين يزعمون أنهم يلبسون أربطة الرقبة من عند "دافيد" والأحذية من عند "جريكو" بباريس كثيرون .

والمسألة لا تخرج عن إحدى حالتين : إما أن تكون رب أسرة تسرف على نفسك وتقترب على أولادك ، وهذه رذيلة لا تمدح عليها . وإما أن تكون غير مسئول عن غيرك ولا منكلف بسواك فانت تصرف ماهيتك أو إيرادك على شخصك فقط . وليس في هذا ما يعجب له الناس .

ومهما يكن من الأمر فإذا ابتلاك الله بأحد أولئك الفشارين فلا تكذبه بعدم تصديقتك ما يقول ، فإن ذلك يستتبع أيمانا يخلفها ليؤكد صدقه فتقدم المناقشة بينكما بلا مبرر . ولكن لا تشجعه بتظاهرك بتصديقه ، لأن ذلك يحمّله على المضى في سخافاتهِ وادعاءاته . وخير ما تفعل هو ألا تهتم بحديثه وأن تحاول الخوض في حديث غيره حتى ينجبل من نفسه فيرحمك من فشره .



أنت تلبس بذلتك الجلدية وتزين وتتعطر وتلبع حذاءك وتقف أمام باب السينا أو أحد المحلات التجارية كالتمثال لولا أن عينيك تتحركان في أعلى وجوهك يمنة ويسرة وسلسلتك الذهبية تلف حول سبابتك طردا وعكسا . فإذا تبينى من ذلك ؟

الفرج برؤية الدخالات والخارجات . أليس كذلك ؟ . ولكن هؤلاء الدخالات والخارجات يمررن أو يمر مثلن وأحسن منهن في الشوارع وتستطيع أن تستفرج برؤيتهن وأن تتمتع نظرك بمشاهدتهن وأنت جالس على أفرز القهوة وهن رائحات غاديات . ولا أقول إنك بذلك تفعل فعلا محمودا أو معتولا ولكنك على الأقل تحفظ كرامتك ولا تجعل الناس يضحكون من وقفتك .

أما إذا كان غرضك من وقفتك هذه اصطياذ واحدة منهن فوسيلتك أرذل الوسائل وأعقمها وأسمجها في وقت واحد . لأنك لن تجد سيدة أو فتاة مهما كانت متساهلة متساهلة ترضى أن تلتفت إلى حركاتك أو أن تستمع إلى اقتراحاتك في مثل هذا الموقف وفي وسط هذا الزحام . وإذا كنت تظن أن إحدى الساقطات منهن قد تقبل عليك وترى فيك غنيمة نفير لك أن تعدل عن هذا الظن ، فالمعلوم والمشهور والمجمع عليه أنه لا يقف هذه الوقفة إلا الشبان المفلسون والرقعاء المتسكعون . والساقطات طالبات رزق والرزق لا يوجد عند هؤلاء . إذن فانت لن تكسب مما تفعل سوى أن يقال إنك سخيف ، فهل ترضى أن يقال إنك سخيف ؟